سيد المؤثرين

د. علي الحمادي

لقد كان ولا يزال للعلماء تأثير فذ، ولو تأملنا في قصة الإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن لوجدنا أن الأمة كانت تنتظر ما يقوله هذا العالم الجليل وما يتخذه من مواقف، ولذا عندما زاره أحد أصحابه في سجنه وقال له: قل كلاماً، إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، فقال الإمام أحمد: انظر ماذا ترى ؟ فرأى الناس على امتداد البصر ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد ليقتدوا به، فقال الإمام أحمد: أنجو بنفسي وأضل هؤلاء ؟! والله لا يكون هذا أبداً.

ولما قدم الخليفة الجهبذ هارون الرشيد المدينة استقبله كل الناس إلا العالم الجليل الإمام مالك بن أنس رحمه الله كتب إليه فقال: إن العلم يؤتى له، فجاءه هارون، فاحتبسه عند بابه، ثم خرج إليه الإمام مالك فقال له: قد علمت أنك تطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأردت أن أهيىء لذلك، قال هارون: اجعل لي مجلساً خاصاً، فقال مالك: يا هارون، إن الخاص لا يُنتفع به، فجلس هارون مع الناس لكنه في موضع متميز، فقال مالك: حدثنا فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من تواضع لله رفعه "، فجلس هارون حيث يجلس الناس، وصدق من قال:

العلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحبه ... فاطلبْ هُديتَ فنونَ العلم والأدبا
لا خيرَ فيمن له أصلٌ بلا أدب ... حتى يكون على ما زانه حدبا
العلم كنزٌ وذُخرٌ لا نفاذ له ... نعم القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمعُ المرءُ مالاً ثم يُسلَبُه ... عما قليل فيلقى الذُّل والحَربَا
وجامعُ العلمِ مغبوطٌ به أبداً ... فلا يُحاذرُ فوتاً لا ولا هَرَبا
يا جامع العلم نِعْمَ الذُّخرُ تجمعه ... لا تعدلنَّ به درّاً ولا ذهبا

لقد جلس التابعي الجليل مكحول (عالم أهل الشام) في مجلسه ذات يوم يُلقي درسه كعادته وحوله طلاب العلم يأخذون عنه إذْ أقبل الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك في زينته وتبختره، وجاء إلى حلقة مكحول، فأراد الطلاب أن يوسعوا له، فقال مكحول: دعوه يتعلم التواضع.

ويقول الحكيم الصيني (كونفوشيوس): العلم بغير إيمان ضرب من النقص المعيب، أما الإيمان بغير بعلم فمهزلة لا تطاق.

إن الأدوار التي قام بها العلماء (عبر التاريخ) في الإصلاح والتغيير والتوجيه كثيرة وكبيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة، وهما من العلماء الصالحين، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ (فعد الخلافة بلاء).

فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عند ابناً، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إن شئت.

لقد اعتنى صناع التأثير بالعلم أيّما اعتناء، وجاهدوا في سبيله أيّما جهاد، وأخلصوا لله تعالى في طلبه، فبلغوا به المنزلة الرفيعة والدرجة السامية، فرحمة ربي عليهم ما طلع الليل والنهار.

يقول القاسم: أفضى بمالك (بن أنس) طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه.

وحكى الحافظ بن عبد البر: أن مسروقاً رحل في حرف، وأن أبا سعيد (الحسن البصري) رحل في حرف أيضاً.

ولقد تألمتُ كثيراً من واقع كثير ممن يعدون أنفسهم من صناع التأثير، تجد أحدهم قد أنهى دراسته الجامعية وربما الماجستير وأحياناً الدكتوراه ولا يفهم في تخصصه إلا الشيء اليسير، ولا تلمس له تمكناً أو عمقاً في المجال الذي درسه طوال سنوات عديدة من حياته، وإذا تكلم في تخصصه تعثر وتلعثم وكأنه ما درس شيئاً، وإذا أراد أن يأتي بفكرة في مجاله الذي يفترض أن يبدع فيه إذْ بفكرته هذه كأنها فكرة طفل صغير لم يفقه من الحياة شيئاً، ترى كيف يكون أمثال هؤلاء من صناع التأثير ومهندسي الحياة ؟!

إنني هنا أهتف في آذان صناع التأثير النافع وفي عقولهم وقلوبهم أن يعيدوا النظر في مدى اعتنائهم بالعلم والعلماء، ومدى اقترابهم من هذا المؤثر الفذ، بل والذي نفسي بيده إنه سيد

المؤثرين وأستاذهم وتاجهم، إنه العلم الذي طالما قدم المتأخرين، وأعز الأذلة والصاغرين، وسوَّد العبيد والموالي، ورفع أتباعه إلى قمم شاهقة وآفاق بعيدة.

يقول الإمام علي بن أبي بن طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد: " العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العالم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه".

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاَّء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش به حيًّا أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

د. علي الحمادي

رئيس مركز التفكير الإبداعي

ورئيس مركز الدقيقة الواحدة

والمشرف العام على الموقع الإلكتروني إسلام تايم